القسم الثانى فى الإسلام
طبيعة الإسلام مع العلم بمقتضى أصوله

تمهيد للأصل الأول للإسلام فى الحقيقة دعوتان: دعوة إلى الاعتقاد بوجود الله وتوحيده ودعوة إلى التصديق برسالة محمد ﷺ. فأما الدعوة الأولى فلم يُعَوَّل فيها إلا على تنبيه العقل البشرى وتوجيهه إلى النظر فى الكون واستعمال القياس الصحيح والرجوع إلى ما حواه الكون من النظام والترتيب وتعاقد الأسباب والمسببات ليصل بذلك إلى أن للكون صانعًا واجب الوجود عالمًا حكيمًا قادرًا. وأن ذلك الصانع واحد لوحدة النظام فى الأكوان. وأطلق للعقل البشرى أن يجرى فى سبيله الذى سَنَّتْهُ له الفطرة بدون تقييد فنبَّهه إلى أن خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وتحريك الرياح على وجه يتيسر للبشر أن يستعملها فى تسخير الفلك لمنافعه وإرسال تلك الرياح لتثير السحاب فينزل من السحاب ماء فتحيى به الأرض بعد موتها وتنبت ما شاء الله من النبات والشجر مما فيه رزق الحى وحفاظ حياته - كل من آيات الله عليه أن يتدبر فيها ليصل منها إلى معرفته.

ثم قد يزيده تنبيهًا بذكر أصل للكون يمكن الوصول إلى شىء منه بالبحث فى عوالمه فيذكر ما كان عليه الأمر فى أول خلق السموات كما جاء فى آية: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ سورة الأنبياء آية ٣٠ ونحوها

من الآيات، وهو إطلاق لعنان العقل البشرى شوطه الذى قدر له فى طريق الوصول إلى ما كانت عليه الأكوان، وقد يزيد التنبيه تأثيرًا فى إيقاظ العقل ما يؤيد ذلك من السنة كما جاء فى خبر من سأل النبى صلى الله عليه وآله: أين كان ربنا قبل السموات والأرض فأجابه عليه السلام: "كان فى عماء تحته هواء"[1] والعماء عندهم السحاب، فنرى القرآن فى مثل هذه المسألة الكبرى لا يقيد العقل بكتاب، ولا يقف به عند باب، ولا يطالبه فيه بحساب، فليقرأ القارئ القرآن. الآيات الداعية إلى النظر فى آيات الكون - ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ سورة الأعراف آية ١٨٥، ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ سورة يس آية ٣٣) - ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ سورة الروم آية ٢٢، وأمثال ذلك. فلو أردت سرد جميعها لأتيت بأكثر من ثلث القرآن بل من نصفه فى مقالى هذا.

يذكر القرآن إجمالاً من آثار الله فى الأكوان تحريكًا للعبرة، وتذكيرًا بالنعمة، وحفزًا للفكرة، لا تقريرًا لقواعد الطبيعة، ولا إلزامًا باعتقاد خاص بالخليقة. وهو فى الاستدلال على التوحيد لم يفارق هذا السبيل. انظر كيف يقرع بالدليل: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (سورة الأنبياء آية ٢٢) - ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ سورة المؤمنون آية ٩١.

---

(١) رواه ابن جرير والطبرانى وأبو الشيخ فى العظمة عن أبى رزين السائل "رضى الله عنه" والحديث من المتشابهات لا يعرف تأويله إلا الراسخون.

فالإسلام فى هذه الدعوة والمطالبة بالإيمان بالله ووحدانيته لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلى، والفكر الإنسانى الذى يجرى على نظامه الفطرى، (وهو ما تسميه بالنظام الطبيعى) فلا يدهشك بخارق للعادة، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية. وقد اتفق المسلمون إلا قليلاً ممن لا يمكن الإيمان بالرسل إلا بعد الإيمان بالله فلا يصح أن يؤخذ الإيمان بالله من كلام الرسل ولا من الكتب المنزَّلة[1] فإنه لا يعقل أن تؤمن بكتاب أنزله الله إلا إذا صدقت قبل ذلك بوجود الله وبأنه يجوز أن ينزل كتابًا أو يرسل رسولاً.

وقالوا كذلك: إن أول واجب يلزم المكلف أن يأتى به هو النظر والفكر لتحصيل الاعتقاد بالله لينتقل منه إلى تحصيل الإيمان بالرسل وما أنزل عليهم من الكتاب والحكمة.

وأما الدعوة الثانية فهى التى يحتجّ فيها الإسلام بخارق العادة. وما أدراك ما هو الخارق للعادة الذى يعتمد عليه الإسلام فى دعوته إلى التصديق برسالة النبى عليه السلام! هذا الخارق للعادة هو الذى تواتر خبره، ولم ينقطع أثره. هذا هو الدليل وحده وما عداه مما ورد فى الأخبار سواء صح سندها أو اشتهر أو ضعف أو وَهِى فليس مما يوجب القطع عند المسلمين. فإذا أورد فى مقام الاستدلال فهو على سبيل تقوية العقد لمن حصل أصله، وفضل من التأكيد لمن سلمه من أهله. ذلك الخارق المتواتر المُعَوَّل عليه فى الاستدلال لتحصيل اليقين هو القرآن وحده.

(١) المنار – أى لا يؤخذ منها بالتسليم بناء على أنها من الله ولا ينافى هذا أن يؤخذ الإيمان بالله من كلام الرسل وكتبهم بما يقيمون من البرهان على ذلك لا بمجرد التسليم ولا باعتبار أنهم رسل الله ثم بعد الإيمان بالله وبهم يكمل إيمان المؤمن بالأخذ عنهم.

والدليل على أنه معجزة خارقة للعادة تدل على أن موحيه هو الله وحده وليس من اختراع البشر هو أنه جاء على لسان أمى لم يتعلم الكتاب ولم يمارس العلوم وقد نزل على وتيرة واحدة، هاديًا للضال مقومًا للمُعْوَجِّ كافلاً بنظام عام لحياة من يهتدى به من الأمم، منقذًا لهم من خسران كانوا فيه وهلاك كانوا أشرفوا عليه. وهو مع ذلك من بلاغة الأسلوب على ما لم يرتق إليه كلام سواه حتى لقد دُعِىَ الفصحاء والبلغاء أن يعارضوه بشىء من مثله فعجزوا ولجأوا إلى المجالدة بالسيوف وسفك الدماء واضطهاد المؤمنين به إلى أن ألجأوهم إلى الدفاع عن حقهم وكان من أمرهم ما كان من انتصار الحق على الباطل وظهور شمس الإسلام تمد عالمها بأضوائها، وتنشر أنوارها فى جوائها.

وهذا الخارق قد دُعِىَ الناس إلى النظر فيه بعقولهم وطولبوا بأن يأتوا فى نظرهم على آخر ما تنتهى إليه قوتهم فإن وجدوا طريقًا لإبطال إعجازه أو كونه لا يصلح دليلاً على المدعى فعليهم أن يأتوا به قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ سورة البقرة آية ٢٣. وقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ سورة النساء آية ٨٢. وقال غير ذلك مما هو مطالبة بمقاومة الحجة بالحجة ولم يطالبهم بمجرد التسليم على رغم من العقل.

معجزة القرآن جامع من القول والعلم، وكل منهما مما يتناوله العقل بالفهم، فهى معجزة عرضت على العقل وعرفته القاضى فيها وأطلقت له حق النظر فى أحنائها، ونشر ما انطوى فى أثنائها. وله منها حظه

الذى لا ينتقض، فهى معجزة أعجزت كل طوق أن يأتى بمثلها، ولكنها دعت كل قدرة أن تتناول ما تشاء منها، أما معجزة موت حى بلا سبب معروف للموت أو حياة ميت أو إخراج شيطان من جسم أو شفاء علة من بدن فهى مما ينقطع عنه العقل. ويجمد لديه الفهم، وإنما يأتى بها الله على يد رسله لإسكات أقوام غلبهم الوهم، ولم تضئ عقولهم بنور العلم، وهكذا يقيم الله بقدرته من الآيات للأمم على حسب الاستعدادات[1].

ثم أن الإسلام لم يتخذ من خوارق العادات دليلاً على الحق لغير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولم ترد فيه كلمة واحدة تشير إلى أن الداعين إليه يمكنهم أن يغيروا شيئًا من سنة الله فى الخليقة ولا حاجة إلى بيان ذلك فهو أشهر من أن يحتاج إلى تعريف.

الأصل الأول للإسلام
النظر العقلى لتحصيل الإيمان[2]

فأول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقلى، والنظر عنده هو وسيلة الإيمان الصحيح فقد أقامك معه على سبيل الحجة وقاضاك إلى العقل، ومن قاضاك إلى حاكم فقد أذعن إلى سلطته، فكيف يمكنه بعد ذلك أن يجور أو يثور عليه؟!

(١) راجع الصفحة ٣٧١ من مجلد المنار الرابع وانظر الكلام فى الآيات الكونية والآيات النفسية العلمية..

(٢) هذا الأصل وما بعده ضد الأصل الرابع من أصول النصرانية.

بلـغ هذا الأصل بالمسـلمين أن قال قائلون من أهل السـنة : إن الذى يسـتقصى جهده فى الوصول إلى الحق ثم لم يصل إليه ومات طالبًا غير واقف عند الظن فهو ناج. فأى سعة لا ينظر إليها الحَرِجُ أكمل من هذه السعة.

الأصل الثانى للإسلام
تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض

أسـرع إليك بذكـر أصل يتبع هـذا الأصل المتقدم قبـل أن أنتقل إلى غيره: اتفق أهل الملة الإسـلامية إلا قليلاً ممن لا يُنْظَرُ إليه على أنه إذا تعـارض العقل والنقل أُخِذَ بما دل عليه النقـل وبقى فى النقل طريقان طريق التسـليم بصحة المنقول مع الاعـتراف بالعجز عن فهمة وتفويض الأمـر إلى الله فى علمه. والطريق الثانية تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل. وبهذا الأصل الذى قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم مُهِّدَتْ بين يدى العقل كل سـبيل، وأُزِيلَتْ من سبيله جميع العقبات، واتسـع له المجال إلى غير حد. فماذا عسـاه يبلغ نظر الفيلسوف حتى يذهب إلى ما هو أبعد من هذا؟ أى فضاء يسـع أهل النظر وطلاب العلوم إن لم يسـعهم هذا الفضاء؟ إن لم يكن فى هذا متسـع لهم فلا وسـعتهم أرض بجبالها ووهادها، ولا سماء بأجرامها وأبعادها.

الأصل الثالث من أصول الأحكام فى الإسلام
البعد عن التكفير

هـلا ذهبتُ من هذين الأصلين إلى ما اشـتهر بين المسـلمين وعرف من قواعـد أحكام دينهم وهو: إذا صـدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجـه ويحتمل الإيمان من وجـه واحد حُمِلَ على الإيمان ولا يجوز حمله على الكفر. فهل رأيت تسـامحًا مع أقوال الفلاسـفة والحكماء أوسع من هذا؟ وهل يليق بالحكيم أن يكون من الحمق بحيث يقول قولاً لا يحتمل الإيمـان مـن مائة وجه؟ إذا بلغ به الحمق هـذا المبلغ كان الأجدر به أن يذوق حكم محكمة التفتيش البابوية ويؤخذ بيديه ورجليه فيلقى فى النار.

الأصل الرابع فى الإسلام
الاعتبار بسنن الله فى الخلق[1]

يتبـع ذلـك الأصل الأول فـى الاعتقاد – وهو أن لا يعـول بعد الأنبياء فـى الدعـوة إلى الحق على غير الدليل وأن لا ينظر إلى العجائب والغرائب وخـوارق العادات – أصل آخر وضع لتقويم ملـكات الأنفس القائمة على طريق الإسـلام وإصلاح أعمالها فى معاشها ومعادها. ذلك هو أصل العبرة بسنة الله فيمن مضى ومن حضر من البشر وفى آثار سيرهم فيهم. فما جاء فـى الكتاب العزيز مقررًا لهذا الأصل ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ سـورة آل عمـران آية ١٣٧.

(١) هذا الأصل ضد الأصل الأول للنصرانية.

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ سورة الإسراء آية ٧٧. ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ سورة فاطر آية ٤٣. ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ سورة الروم آية ٩. إلخ.

فى هذا يصرح الكتاب بأن لله فى الأمم والأكوان سننًا لا تتبدل والسنن الطرائق الثابتة التى تجرى عليها الشؤون وعلى حَسَبِهَا تكون الآثار وهى التى تسمى شرائع أو نواميس ويعبر عنها بالقوانين. ما لنا ولاختلاف العبارات والذى ينادى به الكتاب أن نظام الجمعية البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل وعلى من يطلب السعادة فى هذا الاجتماع أن ينظر فى أصول هذا النظام حتى يرد إليها أعماله ويبنى عليها سيرته وما يأخذ به نفسه. فإن غفل عن ذلك غافل فلا ينتظرن إلا الشقاء. وإن ارتفع إلى الصالحين نسبه. أو اتصل بالمقربين سببه فمهما بحث الناظر وفكر وكشف وقرَّر. وأتى لنا بأحكام تلك السنن. فهو يجرى مع طبيعة الدين. وطبيعة الدين لا تتجافى عنه. ولا تنفر منه. فَلِمَ لا يعظم تسامحها معه؟

جاء الإسلام لمحو الوثنية عربية كانت أو يونانية أو رومانية أو غيرها فى أى لباس وجدت. وفى أى صورة ظهرت. وتحت أى اسم عرفت. ولكن كتابه عربى والعربية لغة أولئك الوثنيين. أعدائه الأقربين. وفَهْم معناه موقوف على معرفة أوضاع اللسان ولا تُعْرَف أوضاعه حتى تُعْرَف مواضع استعمال كَلِمِه وأساليبه. ولن يكون ذلك إلا بحفظ ما نطق به العرب من منظوم ومنثور وفيه من آدابهم وعاداتهم واعتقاداتهم ما يعيد

عنـد الناظر فى كلامهم صورة كاملـة من جاهليتهم وما فيها من الوثنية وأطوارها. وهكذا صنع المسلمون الأولون ركبوا الأسفار، وأنفقوا الأعمار، وبذلـوا الدرهم والدينار فى جمع كلام العرب وحفظه وتدوينه وتفسـيره توسـلاً بذلك إلى فهم كتابهم المنزل فكانوا يعدون ذلك ضربًا من ضروب العبـادة ويرجون من الله فيه حسـن المثوبة فكان مـن طبيعة الدين أن لايحتقـر العلم للدين الذى ولد فيه، بل قد يكون من الدين عِلْمُ ما ليس منه متى حَسُنَتْ النية فى تناوله. وهذا باب من التسامح لا يقدر سعته إلا أهل العلم به. أما المسـيحيون الأولون فقد هجروا لسان المسيح عليه السـلام سـريانيًا كان أو عبرانيًا وكتبوا الأناجيل باللغـة اليونانية ولم يكتب فى العبرية إلا إنجيل متّى فيما يقال. ألا ترى أن اسـم الإنجيل نفسـه يونانى؟ كل ذلك كراهةً لليهود الذين كان ينطق المسـيح بلسانهم ويعظهـم بلغتهم وَتَحرُّجًا من النظر فـى دواوين آدابهم، وما توارثوا من عاداتهم.

الأصل الخامس للإسلام
قلب السلطة الدينية[1]

أصل من أصول الإسـلام أنتقل إليه وما أجلّه من أصل قلب السـلطة الدينية والإتيان عليها من أساسها. هدَمَ الإسلامُ بناءَ تلك السلطة ومحا أثرهـا حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسـم ولا رسـم، لم يدع الإسـلام لأحد بعد الله ورسوله سلطانًا على عقيدة أحد ولا سيطرة على

(١)هذا الأصل هو ضد الأصل الثانى من أصول النصرانية.

إيمانه، على أن الرسول ﷺ كان مبلغًا ومُذكرًا لا مُهيمنًا ومُسيطرًا قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ سورة الغاشية آية ٢١-٢٢) ولم يجعل لأحد من أهله أن يحل ولا أن يربط لا في الأرض ولا في السماء بل الإيمان يعتق المؤمن من كل رقيب عليه فيما بينه وبين الله سوى الله وحده، ويرفع عنه كل رق إلا العبودية لله وحده، وليس لمسلم مهما علا كعبه في الإسلام على آخر مهم انحطت منزلته فيه إلا حق النصيحة والإرشاد قال تعالى في وصف الناجين: ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ سورة وَالعصر آية ٣، وقال: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ سورة آل عمران آية ١٠٤، وقال: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ سورة التوبة آية ١٢٢. فالمسلمون يتناصحون ثم هم يقيمون أمة تدعوهم إلى الخير وهم المراقبون عليها يردونها إلى السبيل السوى إذا انحرفت عنه، وتلك الأمة ليس لها فيهم إلا الدعوة والتذكير، والإنذار والتحذير، ولا يجوز لها ولا لأحد من الناس أن يتبع عورة أحد، ولا يسوغ لقوى ولا لضعيف أن يتجسس على عقيدة أحد، وليس يجب على مسلم أن يأخذ عقيدته أو يتلقى أصول ما يعمل به عن أحد إلا عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، لكل مسلم أن يفهم عن الله من كتاب الله وعن رسوله من كلام رسوله بدون توسيط أحد من سلف ولا خلف، وإنما يجب عليه قبل ذلك أن يحصل من وسائله ما يؤهله للفهم كقواعد اللغة العربية وآدابها وأساليبها وأحوال

العـرب خاصة فى زمان البعثة وما كان الناس عليه زمن النبى صلى الله عليه وسـلم وما وقع من الحوادث وقت نزول الوحى وشـيء من الناسـخ والمنسـوخ مـن الآثار، فإن لم تسـمح له حاله بالوصـول إلى ما يعده لفهم الصواب من السنة والكتاب فليس عليه إلا أن يسأل العارفين بهما وله بل عليه أن يطالب المجيب بالدليل على ما يجيب به سـواء كان السؤال فى أمر الاعتقاد أو فى حكم عمل من الأعمال. فليس فى الإسـلام من يسـمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه.

OOO

السلطان فى الإسلام

لكن الإسـلام -دينًا وشـرعًا- فقد وضع حدودًا ورسـم حقوقًا، وليس كل معتقـد فى ظاهـر أمره بحكم يجـرى عليه فى عملـه، فقد يغلب الهوى وتتحكم الشهوة فيغمط الحق. أو يتعدى المتعدى الحد فلا تكمل الحكمة من تشـريع الأحكام إلا إذا وُجِدَتْ قـوة لإقامة الحدود وتنفيذ حكم القاضى بالحق وصون نظام الجماعة. وتلك القوة لا يجوز أن تكون فوضى على عدد كثير فلا بد أن تكون فى واحد وهو السلطان أو الخليفة.

الخليفة عند المسـلمين ليس بالمعصـوم. ولا هو مهبط الوحى، ولا من حقه الاسـتئثار بتفسير الكتاب والسنة، نعم شرط فيه أن يكون مجتهدًا أى أن يكـون مـن العلم باللغة العربية وما معهـا مما تقدم ذِكْره بحيث يتيسـر له أن يفهم من الكتاب والسـنة ما يحتاج إليه من الأحكام حتى

يتمكن بنفسه من التمييز بين الحق والباطل والصحيح والفاسد، ويسهل عليه إقامة العدل الذى يطالبه به الدين والأمة معًا.

هو على هذا، لا يخصه الدين فى فهم الكتاب والعلم بالأحكام بمزية، ولا يرتفع به إلى منزلة، بل هو وسائر طلاب الفهم سواء، إنما يتفاضلون بصفاء العقل، وكثرة الإصابة فى الحكم[1] ثم هو مطاع ما دام على المحجة ونهج الكتاب والسنة، والمسلمون له بالمرصاد، فإذا انحرف عن النهج أقاموا عليه، وإذا اعْوَجَّ قَوَّمُوه بالنصيحة والإعذار إليه[2] (لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق)[3] فإذا فارق الكتاب والسنة فى عمله، وجب عليهم أن يستبدلوا به غيره، ما لم يكن فى استبداله مفسدة تفوق المصلحة فيه[4] فالأمة أو نائب الأمة هو الذى ينصبه، والأمة هى صاحبة الحق فى السيطرة عليه، وهى التى تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها فهو حاكم مدنى من جميع الوجوه.

ولا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة عند المسلمين بما يسميه الإفرنج (تيوكراتيك) أى سلطان إلهى، فإن ذلك عندهم هو الذى ينفرد بتلقى الشريعة عن الله وله حق الأثرة بالتشريع، وله فى رقاب الناس حق الطاعة لا بالبيعة وما تقتضيه من العدل وحماية الحَوْزة بل بمقتضى

---

(١) المنار – من شواهد ذلك ارتفاع قدر العلماء على الخلفاء الذين قصروا عنهم فى الفهم والعلم، ألم يأتك نبأ الإمام مالك مع الخليفة هارون الرشيد "رحمهما الله" وكيف أنزل الإمام الخليفة عن المنصة وأقعده مع العامة عند إلقاء الدرس لأنه فى رتبه المستفيد.

(٢) من شواهد ذلك قول الخليفة الأول رضى الله عنه فى خطبته "وان زغت فقوموني" راجع ٧٣٤ من مجلد المنار الرابع.

(٣) حديث رواه البخارى وسلم وغيرهما "راجع ٧٣٢ من مجلد المنار الرابع".

(٤) مثال ذلك ان يكون له عصبية أقوى من الأمة يخشى أن يبيدها بها "درء المفاسد مقدم على جلب المصالح".

الإيمـــان فليس للمؤمن مـــا دام مؤمنًا أن يخالفه وإن اعتقد أنه عدو لدين الله. وشـــهدت عيناه من أعماله ما لا ينطبق على ما يعرفه من شرائعه؛ لأن عمـــل صاحب الســـلطان الدينى وقوله فـــى أى مظهر ظهر هو دين وشـــرع، وهكذا كانت ســـلطة الكنيســـة فى القرون الوســـطى، ولا تزال الكنيسة تدعى الحق فى هذه السلطة إلى اليوم كما سبقت الإشارة إليه.

كان من أعمال التمدن الحديث الفصل بين الســـلطة الدينية والســـلطة المدنية فترك للكنيســـة حق الســـيطرة على الاعتقاد والأعمال فيما هو من معاملة العبد لربه، تشـــرع وتنسخ ما تشـــاء وتراقب وتحاسب كما تشاء وتحرم وتعطى كما تريد وخول السلطة المدنية حق التشريع فى معاملات الناس بعضهم لبعض وحق الســـيطرة على ما يحفظ نظام اجتماعهم، فى معاشهم لا فى معادهم، وعدوا هذا الفصل منبعًا للخير الأعم عندهم، ثم هم يَهِمُّون فيما يرمون به الإسلام من أنه يحتم قرن السلطتين فى شخص واحد ويظنون أن معنى ذلك فى رأى المســـلم أن السلطان هو مقرر الدين وهـــو واضع أحكامه وهو منفذهـــا، والإيمان آلة فى يده يتصرف بها فى القلـــوب بالإخضاع، وفى العقول بالإقناع، وما العقل والوجدان عنده إلا متاع، ويبنون على ذلك أن المســـلم مستعبدًا لسلطانه بدينه، وقد عهدوا أن سلطان الدين عندهم كان يحارب العلم، ويحمى حقيقة الجهل، فلا يتيسر للدين الإسلامى أن يأخذ بالتسامح مع العلم ما دام من أصوله أن إقامة الســـلطان واجبة بمقتضى الدين، وقد تبـــين لك أن هذا كله خطأ محض وبُعْد عن فهم معنى ذلك الأصل من أصول الإســـلام، وعلمت أن ليس فى الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة، والدعوة إلى

الخير، والتنفير عن الشــر. وهى سلطة خَوَّلها الله لأدنى المسلمين يقرع بهــا أنف أعلاهم، كما خَوَّلها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم، ومن هنا تعلم (الجامعة) أن مســألة الســلطان فى دين الإسلام ليست مما يضيق به صدره، وتحرج به نفســه عن احتمال العلم، وقد تقدم ما يشير إلى ما صنع الخلفاء العباســيون والأمويون والأندلسيون من صنائع المعروف مع العلم والعلماء. وربما أتينا على شىء آخر منه فيما بعد.

يقولون: إن لم يكن للخليفة ذلك السلطان الدينى أفلا يكون للقاضى أو المفتى أو شيخ الإسلام، وأقول: إن الإسلام لم يجعل لهؤلاء أدنى سلطة علــى العقائد وتقرير الأحكام وكل ســلطة تناولهــا واحد من هؤلاء فهى ســلطة مدنية قَرَّرَها الشرع الإســلامى، ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعى حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه أو يُنازعه فى طريق نظره.

الأصل السادس للإسلام
حماية الدعوة لمنع الفتنة

قالوا: إن الدين الإسلامى دين جهادى شُرِعَ فيه القتال، ولم يكن شرع فى الدين المسيحى، ففى طبيعة الدين الشدة على من يخالفه وليس فيها ذلك الصبر والاحتمال اللذان تقضى بهما شــريعة المســالمة وهى الشريعة التى وردت فى كثير من الوصايا المسيحية (مَنْ ضَربَكَ على خدك الأيسر فأَدِرْ له خدك الأيمن، من ســـخَّرَكَ ميلاً فَسِــرْ معه ميلينِ) ونحو ذلك، حتى لقد طلبت فيها محبة الأعداء وإن كانت محبة العدو مما لا يدخل

تحت الاختيار بل ولا محبة الصديق وإنما الاختيارى العدل بين الأعداء والأولياء لكن فى ملكوت الله كل شيء مُستطاع ولا شيء فيه بمستحيل.

قلنا: لكن انظروا هل دفع الشر بالشر عند القدرة عليه وعند عدم التمكن من سواه خاص بالدين الإسلامى أو هو فى طبيعة كل قادر يُعْذِرُ إلى خَصْمِهِ؟ ليس القتل فى طبيعة الإسلام بل فى طبيعته العفو والمسامحة: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ سورة الأعراف آية ١٩٩. ولكن القتال فيه لرد اعتداء المعتدين على الحق وأهله إلى أن يأمن شرهم ويضمن السلامة من غوائلهم. ولم يكن ذلك للإكراه على الدين ولا للانتقام من مخالفيه ولهذا لا تسمع فى تاريخ الفتوح الإسلامية. ما تسمعه فى الحروب المسيحية. عندما اقتدر أصحاب (شريعة المسالمة) على محاربة غيرهم من قتل الشيوخ والنساء والأطفال.

لم تقع حرب إسلامية بقصد الإبادة كما وقع كثير من الحروب بهذا القصد بأيدى المسيحيين. وإنما كان الصبر والمسالمة دينًا عندما كانت القدرة والقوة تعوزان الدين. وغاية ما يقال: إن العناية الإلهية منحت الإسلام فى الزمن القصير من القوة على مدافعة أعدائه ما لم تمنحه لغيره فى الزمن الطويل. فتيسر له فى شبيبته ما لم يتيسر لغيره إلا فى كهولته أو شيخوخته.

○○○

مقابلة بين الإسلام الحربىّ والمسيحية السلمية

الإسلام الحربى كان يكتفى من الفتح بإدخال الأرض تحت سلطانه ثم يترك الناس وما كانوا عليه من الدين يؤدون ما يجب عليهم فى اعتقادهم

كما شـاء ذلك الاعتقاد. وإنما يكلفهم بجزية يدفعونها لتكون عونًا على صيانتهـم والمحافظة على أمنهم فى ديارهم وهم فى عقائدهم وعباداتهم وعاداتهـم بعد ذلك أحرار لا يُضايَقُون فى عمل ولا يضامون فى معاملة. وكان خلفاء المسـلمين يُوصون قوادهم باحـترام العُبَّاد الذين انقطعوا عن العامـة فى الصوامع والأديار لمجرد العبادة كما كانوا يوصونهم باحترام دمـاء النسـاء والأطفال. وكل مـن لم يُعِن على القتال. جاءت السـنة المتواتـرة بالنهـى عن إيذاء أهل الذمة وبتقريـر ما لهم من الحقوق على المسلمين (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) و (من آذى ذميًّا فليس منا) واستمر العمل على ذلك ما استمرت قوة الإسلام. ولست أبالى إذا انحرف بعض المسـلمين عن هذه الأحكام. عند ما بدأ الضعف فى الإسـلام - وضِيقُ الصدر من طَبْع الضعيف فذلك مما لا يُلْصَق بطبيعته. ولا يُخْلَط بطينته.

المسيحية السَلمية كانت ترى لها حق القيام على كل دين يدخل تحت سـلطانها تراقب أعمال أهله وتخصصهم دون الناس بضروب من المعاملة لا يحتملها الصبر مهما عظم. حتى إذا تمت لها القدرة على طردهم بعد العجز عن إخراجهم من دينهم وتعميدهم أَجْلَتْهُمُ عن ديارهم. وغسـلت الديار من آثارهم. كما حصل ويحصل فى كل أرض استولت عليها أمة مسـيحية استيلاءً حقيقيًّا. لا يمنع غير المسيحى من تعدى المسيحى إلا كثرة العدد. أو شدة العضد. كما شاهد التاريخ وكما يشهد كاتبوه. ذلك كله. لأنه ما جاء ليلقى سـلامًا بل سـيفًا. ولأنه جاء ليفرق بين البنت وأمها والابن وأبيه[1] والإسـلام يقول كتابه فى شأن الوالدين: ﴿وَإِن

(١) تقدم نص إنجيل متى فى هذا. ومثله قول إنجيل لوقا ١٥ - ٢٥ و٢٦ (وقال لهم "يسوع" إن كان أحد يأتى إلى ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده واخوته واخواته حتى نفسه أيضا=

جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ﴾ سورة لقمان آية ١٥ . فهو فى اشتداده على المهددين لأمنه لا يقضى بالفُرْقة بين أب وابن ولا بين أم وبنت . بل يأمر الأولاد المؤمنين أن يصحبوا آباءهم المشركين بالمعروف فى الدنيا مع محافظتهم على دينهم.

فأنت ترى الإسلام من جهة يكتفى من الأمم والطوائف التى يغلب على أرضها بشىء من المال أقل مما كانوا يؤدونه بنظام السلطة العامة ، ثم يرخى لهم بعد ذلك عنان الاختيار فى شؤونهم الخاصة بهم لا رقيب عليهم فيها إلا ضمائرهم . ومن جهة أخرى ينهى أفراد المؤمنين عن مقاطعة ذوى قربانهم من المشركين ويطالبهم بحسن معاملتهم. ففى طبيعته أن يَكل أمر الناس فى سرائرهم إلى ربهم ، وفى طبيعته أن يجير

فلا يقدر أن يكون لى تلميذًا) وفى الباب ١٩ من هذا الإنجيل ما نصه (٢٧ أما أعدائى أولئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم تأتوا بهم إلى هنا واذبحوهم قدامى) وأما أسفار التوراة فقد جاء فيها نحو ذلك فى القسوة مع الأهلين المخالفين ومع سائر المحاربين قال فى ١٣ : ٦-٩ من تثنية الاشتراع (وإذا أغواك سرًا أخوك ابن أمك أو ابنك أو ابنتك أو امرأة حضنك أو صاحبك الذى مثل نفسك قائلا نذهب ونعبد آلهة أخرى لم تعرفها أنت ولا آباؤك من آلهة الشعوب القريبين منك أو البعيدين عنك من أقصاء الأرض إلى أقصائها فلا ترض منه ولا تسمع له ولا تشفق عينك عليه ولا ترق له ولا تستره بل قتلاً تقتله إلخ) وفى سفر التثنية أيضا (٢٠ : ١٠-١٦) ما نصه (حين تقرب من مدينة لتحاربها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك وإن لم تسلم لك بل عملت معك حربًا فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم ، وكلّ ما فى المدينة كلّ غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك وهكذا تفعل بجميع المدن البعيدة جدا منك التى ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا ، وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيبًا فلا تستبق منهم نسمة ما) .

من لا يعتقد عقيدته، ويحمى من لا يتبع سنته، وإن كان فى عمًى من الجهالة وخَبَل من الضلالة. أفَتَرى أنه يصعب عليه بعد ذلك أن يحتمل العلم والعلماء، ويضيق به حلمه عن صنع الجميل بالفضل والفضلاء، ممن ينفق عمره فى تقرير حقيقة، أو كشف غامض أو تبيين طريقة؟ كلا ثم كلا، فمن بحث ونقب، وسبر ونقر، أو شق الأرض، أو ارتقى إلى السماء فهو فى أمن من أن يعرض الإسلام له فى شىء من عمله إلا أن يُحْدِث شغبًا، أو يُفْسِد أدبًا. فعند ذلك تمتد يد الملك لرد كيد الكائد، وإصلاح الفاسد، بسماح من الدين.

الأصل السابع للإسلام
مودة المخالفين فى العقيدة[1]

المصاهرة:

أباح الإسلام للمسلم أن يتزوج الكتابية نصرانية كانت أو يهودية وجعل من حقوق الزوجة الكتابية على زوجها المسلم أن تتمتع بالبقاء على عقيدتها، والقيام بفروض عبادتها، والذهاب إلى كنيستها أو بيعتها، وهى منه بمنزلة البعض من الكل. وألزم له من الظل. وصاحبته فى العز والذل، والترحال والحل، بهجة قلبه، وريحانة نفسه، وأميرة بيته، وأم بناته وبنيه، تتصرف فيهم كما تتصرف فيه، لم يفرق الدين فى حقوق الزوجية بين الزوجة المسلمة والزوجة الكتابية، ولم تخرج الزوجة الكتابية باختلافها فى العقيدة مع زوجها من حكم قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم

(١) هذا الأصل الإسلامى هو ضد الأصل السادس للنصرانية.

مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ سورة الروم آية ٢١. فلها حظها من المودة، ونصيبها من الرحمة. وهى كما هى، وهو يسكن إليها كما تسكن إليه، وهو لباس لها كما أنها لباس له، وأين أنت من صلة المصاهرة التى تحدث بين أقارب الزوج وأقارب الزوجة وما يكون بين الفريقين من الموالاة والمناصرة على ما عُهِدَ فى طبيعة البشر، وما أجلى ما يظهر من ذلك بين الأولاد وأخوالهم، وذوى القربى لوالدتهم، أيغيب عنك ما يستحكم من ربط الألفة بين المسلم وغير المسلم بأمثال هذا التسامح الذى لم يُعْهَد عند من سبق ولا فيمن لحق من أهل الدينين السابقين عليه[1].

ولا يخفى على صحيح النظر أن تقرير التسامح على هذا الوجه فى نشأة الدين مما يُعوِّد القلوب على الشعور بأن الدين معاملة بين العبد وربه، والعقيدة طور من أطوار القلوب، يجب أن يكون أمرها بيد علام الغيوب، فهو الذى يحاسب عليها، أما المخلوق فلا تطول يده إليها، وغاية ما يكون من العارف بالحق أن ينبه الغافل، ويعلم الجاهل، وينصح للغاوى، ويرشد الضال، لا يكفر فى ذلك نعمة العشير، ولا يسلك مسالك التعسير، ولا يقطع أمل النصير ولا يخالف سنة الوفاء، ولا يحيد عن شرائع الصدق فى الولاء، ماذا ترى فى الزوجة الكتابية لو كانت من أهل

(١) المنار – يقول بعض النصارى: إذا كان الإسلام أباح للمسلم أن يتزوج بالكتابية ليعلّم البشر التآلف والتعاطف، مع التباين فى العقيدة والتخالف، فلماذا لم يسمح للكتابى أن يتزوج بالمسلمة لهذا الغرض؟.. والجواب أن الرجال قوامون على النساء لأنهم أقوى منهن فليس من العدل ولا من الرحمة أن يسمح لقوى يفرق دينه بينه وبين زوجته الضعيفة ويأمره ببغضها وببغض أولاده ووالديه إذا خالفوا عقيدته أن يتزوج بامرأة مخالفة، أباح الإسلام ذلك لمن يعمل بما أمر من العدل والرحمة وهو المسلم.

النظـر العقلى وذهبت مذهبًا يخالف مذهـب زوجها؟ أفينقص ذلك من مودته لها. أو يضعف من شـعور الرحمة التى أفاضها الله بينه وبينها. فإذا كان المسـلم يتعود الاحتمال بل يتعـود المحبة والنصرة لمن يخالفه فى عقيدته، ودينه وملته، ويألف مخالطته وعشرته، وولايته ونصرته، أتـراه لا يحتمل أن يرى بجواره من يُعْمِل نظره فى نظام الخليقة ليصل منه إلى اكتشاف سر أو تقرير أصل فى علم أو قاعدة لصناعة وإن كان قد يخالف ظاهرًا مما يعتقد، أو يميل إلى رأى غير الذى يجد، أفلا يسـع هذا ما يسع المجاهر بالخلاف، وهو معه على ما رأيت من الائتلاف؟؟

لو ذهبت أعد ما فى طبيعة الإسلام من عناصر وأركان كلها تؤلف مزاج الكرم، وتكون حقيقة المسـامحة مع العلم: لأطلت على القارئ أكثر مما أطلت ولهذا أرى من الواجب على أن أختم القول بذكر أصل أشرت إليه ولا غنى لما نحن فيه عن ذكره.

الأصل الثامن للإسلام
الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة[1]

الصحة:

الحياة فى الإسـلام مقدمـة على الدين، أوامر الحنيفية السـمحة إن كانـت تختطـف العبد إلى ربـه، وتملأ قلبه من رَهْبِـهِ، وتفعم أمله من رَغْبِهِ. فهى مع ذلك لا تأخذه عن كَسْبِهِ، ولا تحرمه من التمتع به، ولا توجب عليه تقشف الزهادة، ولا تُجَشِّمه فى ترك اللذات ما فوق العادة.

(١) هذا الأصل ضد الأصل ٣ للنصرانية "راجع ص٢٦".

صاحب هذا الدين صلى الله عليه وسلم لم يقل "بع ما تملك واتبعنى" ولكن قال لمن استشاره فيما يتصدق به من ماله: (الثلث والثلث كثير إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس)[1].

الرُخص:

فرض الصوم على المؤمنين لكن إذا خشى منه المرض أو زيادته أو زادت المشقة فيه جاز تركه بل قد يجب إذا غلب على الظن الضرر فيه، الوضوء والغسل من شروط الصحة للصلاة إلا إذا خشى منه الضرر أو عرضت مشقة فى تحصيل الماء. القيام مما لا تصح الصلاة إلا به إلا إذا أصابت المصلى مشقة فيه فيسقط ويصلى قاعدًا. السعى إلى الجمعة واجب إلا إذا كان وحل غزير أو مطر كثير أو ما يوجب تعبًا ومشقة فيسقط.

وهكذا تجد القاعدة قد عمت: (صحة الأبدان مقدمة على صحة الأديان) فترى الدين قد راعى فى أحكامه سلامة البدن كما أوجب العناية بسلامة الروح.

الزينة والطيبات:

أباح الإسلام لأهله التجمل بأنواع الزينة والتوسع فى التمتع بالمشهيات على شريطة القصد والاعتدال وحسن النية، والوقوف عند الحدود الشرعية، والمحافظة على صفات الرجولية، جاء فى الكتاب العزيز:

(١) المنار – يشير الكاتب إلى حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه وقد رواه البخارى ومسلم وأصحاب السنن الأربعة. كان سعد مريضا فى حجة الوداع فعاده النبى صلى الله عليه وسلم وكان عازما على الصدقة بثلثى ماله وفى رواية بماله كله فسأل النبى عما ترك لولده فقال هم أغنياء. وفى رواية الجماعة أنه لم يكن له إلا بنت. وفى رواية أحمد والنسائى أنه أمره أولا بأن يتصدق بالعشر والحاصل أنه مازال يراجعه حتى رضى صلى الله عليه وسلم بالثلث وحرم الزيادة بالحديث.

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ سورة الأعراف الآيات ٣١-٣٢-٣٣.

ثم عد الله النعيم والجمال والزينة من نعمه علينا التى يذكرنا بها فضله، ويهيج بها نفوسنا لذكره وشكره، كما قال: ﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۚ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٧﴾ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ سورة النحل الآيات ٥-٦-٧-٨، ثم قال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ سورة النحل آية ١٤.

الاقتصاد:

ووضع قانونًا للإنفاق وحفظ المال فى قوله: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ﴾ سورة الإسراء آية ٢٧، ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴾ سورة الإسراء آية ٢٩.

النهى عن الغلو فى الدين:

وخشى على المؤمن أن يغلو فى طلب الآخرة فيهلك دنياه وينسى نفسه منها فذكرنا بما قَصَّهُ علينا أن الآخرة يمكن نيلها مع التمتع بنعم الله علينا فى الدنيا إذ قال: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ سورة القصص آية ٧٧.

فترى أن الإسلام لم يبخس الحواس حقها كما أنه هيأ الروح لبلوغ كمالها، فهو الذى جمع للإنسان أجزاء حقيقته واعتبره حيوانا ناطقا لا جسمانيًا صرفًا، ولا ملكوتيًا بحتًا، جعله من أهل الدنيا كما هو من أهل الآخرة، استبقاه من أهل هذا العالم الجسدانى، كما دعاه إلى أن يطلب مقامه الروحانى. أليس يكون بذلك وبما بينه فى قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ سورة البقرة آية ٢٩. قد أطلق القيد عن قواه، لتصل من رقة الحياة (مع القصد) إلى منتهاه، والنفوس مطبوعة على التنافس، قد غرز فيها حب التسابق فيما تعتقده خيرًا، أو تجده لذيذًا أو تظنه نافعًا.

وليس فى الغريزة الإنسانية أن يقف بها الطلب عند حد محدود أو ينتهى بها السعى إلى غاية لا مطلع للرغبة وراءها، بل خصها الله بالمكنة من الرقى فى أطوار الكمال من جميع وجوهه إلى ما شاء الله أن ترقى بدون حدٍ معروف.

نتيجة

فإذا جمع سائق الأنفس ومُزْجِيها ومرشدها وهاديها بين شاحذين: شاحذ التمتع بمتاع الحياة الدنيا، وشاحذ الرغبة فى النعيم الدائم فى

الآخرة، فقد جمع لها كل ما يسمو بها عن الرضاء فى الدنيا بالدون، وفى الآخرة بعذاب الهون، فترى كل نفس تمضى مع استعدادها، بشهامة فؤادها، مضاء الزَّميع[1] لا تخشى العثرة بالوعيد، ولا تقعد عن مطلبها قِعدة الرِعديد[2] فتطلَب منافعها، من هذا الكون الذى وُجدت فيه ووجد فها، فتسير فى مناكب الأرض، ولا تكتفى عن الكل بالبعض، وتبحث فى تربتها، ولا يقف بها ظاهرها عن باطنها، ولا يحجبها ظهرها عن مديديها إلى ما فى جوفها، ولا تجد ما يصدُّها عن النظر فى الهواء، والبحث فى الماء، والاهتداء بنجوم السماء بعد معرفة مواقعها وحركتها فى مداراتها واستقامتها وانحرافها، وظهورها وخنوسها، وبالجملة فكل مستعدٌ لوجه من وجوه النظر أو الولوج فى باب من أبواب العلم، ينطلق إلى حيث يبلغ به استعداده إما للنجاة من ضرورة، وإما لاستتمام منفعة أو استكمال لذة لا يجد من نواهى الدين ما يصدّه عن مطلب، ولا ما يكف يده عن تناول رغيبه، أين هذا من ذلك الذى لا يرى الخلاص إلا فى مجافاة هذا العالم ولذائذه ويجد أن الغنى والثروة من الحجب التى لا تُخرق تحول بينه وبين ملكوت السموات.

كيف يتسنّى للمسلم أن يشكر الله حق شكره، إذا لم يضع العالم بأسره تحت نظر فكره لينفذ من ظاهرة إلى سرّه ويقف على قوانينه وشرائعه ويستخدم كل ما يصلح لخدمته فى توفير منافعه، كيف يشكر الله إذا توانى فى ذلك وقد أرشده الله فى كتابه وبسنة نبيه إلى أن عالمه إنما

(١) هو الحازم القوى العزيمة يزمع على الأمر فيمضى فيه ولا ينثنى والجيد الرأى المقدام..

(٢) الرعديد الجبان الكثير الارتعاد.

خلق لأجله، وقد وضعه الله تحت تصرف عقله. انظر إلى لطف الإشارة فى الآية المتقدمة ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ﴾ سورة الأعراف آية ٣٢.. إلخ، حيث قال: ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ سورة الأعراف آية ٣٢، فأهل العلم هم الذين يعرفون مقدار نعم الله تعالى فيما يرفه به معيشتهم، ويُجَمّل به هيأتهم ويجلى به زينتهم.

المسلمون مسوقون بنابل من دينهم إلى طلب ما يكسبهم الرفعة والسؤدد والعزة والمجد ولا يرضيهم من ذلك بما دون الغاية ولا يتوفر شيء من وسائل ذلك إلا بالعلم. فهم محفوزون أشدَّ الحفوز إلى طلب العلم وتلمسه فى كل مكان، وتلقيه من أيّة شفة وأى لسان. فإذا لاقاهم العالم فى أى سبيل أو عثروا به فى أى جيل، أو ظهر لهم من أى قبيل. هشوا له وبشوا ونصبوا إليه وكمشوا[1]. وشدوا به أواصرهم. وعقدوا عليه خناصرهم. ولا يبالون ما تكون عقيدته. إذا نفعتهم حكمته. "الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها"[2] ألم يأتهم عن ربهم: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ سورة البقرة آية ٢٦٩. ألم يسمعوا فى وصفهم قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ﴾ سورة الزمر آية ١٨، ذلك شأن المسلم مع العلم إذا كان مسلمًا حقًا. وذلك ما تنجرُّ

---

(١) المنار – لعل نصبوا من نصب السير وهو أن يسير طول يومه سيراً ليَنا. وكَمِشَ الرجل كان سريعاً ماضيا. وكَمُش كماشة شجع وأسرع..

(٢) حديث رواه الترمذى عن أبى هريرة، ورواه غيره بألفاظ أخرى والمعنى واحد، ومنه رواية موقوفة على ابن عمر رضى الله عنهما "خذ الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت" وفى رواية عن على كرم الله وجه "الحكمة ضالة المؤمن فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق".

إليــه طبيعــة دينه . وحديث "اطلبوا العلم ولــو بالصين"[1] إن كان فى ســند لفظه إلى النبى صلى الله عليه وســلم مقال فسند معناه متواتر فإنه ســند القرآن نفســه فإن الله يفضل العلم بدون قيد ولا تخصيص. فالمسلم مطالب بطلب العلم ولو فى الصين ولم يكن فى الصين مســلم على عهد النبى صلى الله عليه وسلم.

لا شىء ينقلب عند النفس الإنسانية لذة بنفسه وإن كان فى أول أمره مطلوبًا لغيره مثل العلم. تطلب العلم أولاً لحاجتك إليه فى تقويم معيشة أو ترفيــه حال. أو دفاع عن نفس وماله. ثم لا تلبث إذا أوغلت فيه أن تجد اللذة فى العلم نفســه فتصيب اللــذة بتحصيله والوصول إلى دقائقه غاية تقصد بنفسها.

وتضمحــل فيها كل غاية ســواها وعلة ذلك ظاهرة فإن العلم مســرح نظر النقل. والعقل قوة من أفضل القوى الإنســانية بل هى أفضلها على الحقيقة قد وضع لها العليم الحكيم لذة كما منح لكل قوة ســواها نعيمًا ولذة . ولست فى حاجة إلى تعديد لذة البصر أو السمع أو الشم أو الذوق أو اللمس فالحيوان يعرفها بله الإنسان.

وكلما عظم اختصاص القوة بالنوع عظمت لذته باستعمالها فيما وجهت له فيمكنك أن تســتنتج من ذلك أن لا شــيء عند الانسان ألذ من كشف المجهول. وإحراز المعقول. وقد سمح الإســلام للمسلم أن يتمتع فى هذه الحيــاة الدنيــا بما يلذ له مــع القصد والاعتدال. أفلا يكــون من لذائذه

(١) رواه ابن عدى فى الكامل والبيهقى فى شــعب الإيمان والمدخل وابن عبدالبر فى العلم والخطيــب فى الرحلة والديلمى فى مســند الفردوس وغيرهم ولــه طرق كثيرة يقوى بعضها بعضا..

ومتممات نعيمه أن يسـيح فى مملكة العلم ليتمع عقله، كما يسـيح فى بسيط الأرض ليكسب رزقه ويُقيت أهله على أن العلم كان من ضروريات معيشة المسـلم أو حاجياتها كما ذكرنا فإذا طفق يستنبط ماءه للضرورة، ويستجلى سناءه للحاجة، فلا يلبث أن يصير هو حاجة نفسه. وشاغله عن حاجات حسـه، حتى يدخل معه فى رَمْسِـهِ. كما وقع لكثير من المسلمين. قال إمام جليل من أئمتهم "طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله".

نتائج هذه الأصول وآثارها فى المسلمين

إلام أفضت طبيعة الإسلام بالمسلمين؟ وماذا كان أثرها فى أسلافهم الأولى؟

.. فتح عمرو بن العاص رضى الله عنه مصر واستولى بجيشه على الإسكندرية بعد لحاق النبى – صلى الله تعالى عليه وآله وسلم – بالرفيق الأعلى بست سنوات فى رواية، وتسع سنوات فى رواية أخرى، والإسلام فى طلوع فجره وتفتح نوره، فكان من بقايا ما تركت الأزمان الأولى رجل مسيحىٌ من اليعقوبيين اسمه يوحنا النحوى كان فى بدء أمره ملاحا يعبر الناس بسفينته وكان يميل إلى العلم بطبيعته، فإذا ركب معه بعض أهل العلم أصغى إلى مذاكرتهم، ثم اشتد به الشوق فترك الملاحة واشتغل بالعلم وهو ابن أربعين سنة، فبلغ فيه ما لم يبلغه الناشئون فيه من طفوليتهم. وقد أحسن من العلم فنونا كثيرة حتى عُدَّ من فلاسفة وقته وأطبائه ومناطقته.

يقول كثير من مؤرخى الغربيين ومؤرخى المسلمين إن عمرو بن العاص سمع به فاستدناه منه وأكرمه لعلمه ووقعت بينهما محبة ظهر أمرها واشتهر حتى قال أحد فلاسفة الغربيين: "إن المحبة التى نشأت بين عمرو بن العاص فاتح مصر ويوحنا النحوى ترينا مبلغ ما يسمو إليه العقل العربى من الأفكار الحرة والرأى العالى بمجرد ما أعتق من الوثنية

الجاهلية ودخل فى التوحيد المحمدى أصبح على غاية من الاستعداد للجولان فى ميادين العلوم الفلسفية والأدبية من كل نوع".

خالط المسلمون أهل فارس وسوريا وسواد العراق وأدخلوهم فى أعمالهم ولم يمنعهم الدين عن استعمالهم حتى كانت دفاترهم بالرومية فى سوريا ولم تغير بالعربية إلا بعد عشرات من السنين فاحتكت الأفكار بالأفكار وأفضت سماحة الدين إلى أن أخذ المسلمون فى دراسة العلوم والفنون والصنائع.

○○○

اشتغال المسلمين بالعلوم الأدبية ثم العقلية

وبعد عشرين سنة من وفاته عليه الصلاة والسلام أخذ الخليفة علىّ ابن أبى طالب كرم الله وجهه يحضُّ على تعليم الآداب العربية ويطلب وضع القواعد لها لما رأى من حاجة الناس إلى ذلك. وأخذ المسلمون يتحسسون نور العلم فى ظلام تلك الفتن استرسالا مع ما يدعوهم إليه دينهم وتنبههم لطلبه شريعتهم، وإن كانت الحروب الداخلية التى اشتعلت نارها فى أطراف بلادهم للنزاع فى أمر الخلافة قد شغلتهم عن كل شىء من مصالحهم فإنها لم تشغلهم عن تلمس العلوم والتناول منها بالتدريج على سنة الفطرة، فالبراعة فى الآداب من علم بوقائع العرب وتاريخهم وقول الشعر وإنشاء البليغ من النثر قد بلغت فى خلافة بنى أمية مبلغاً لم تبلغه أمة قط فى مثل مدتها.

وكان الخلفاء الأمويون يعلون منزلتهما ويرفعون مكانات الشعراء والخطباء والعلماء بالسير، ثم ظهرت آثار العلوم العقلية فى آخر دولتهم وترجمت جملة من الكتب العقلية والصناعية قبل نهاية القرن الأول.

نقل الخلفاء الأمويون دار الخلافة من المدينة إلى الشام ولم يسيروا فى الزهد سيرة الخلفاء الراشدين، فقد جاء رسول من الفرس إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فلما سئل عنه دُلّ عليه فذهب إليه، فإذا هو نائم على الأرض تحت نخل البقيع بين الفقراء، وجاءت رسل الملوك إلى معاوية رحمه الله، فإذا هو فى قصر مشيد محلّى البنيان بأجمل ما يكون من الصنعة العربية مزين بالجنات والرياض وينابيع الماء مفروش بأحسن الفرش يرى الناظر فيه أفخر الأثاث والرياش، ولم يكن معاوية فى ذلك قد خالف الدين أو حاد عن طريقه، وإنما تناول مباحاً وتمتع برخصة آتاه الله إياها ولا يخفى ما فى ذلك من ترويج فنون الإبداع فى الصنعة على اختلاف ضروبها.

اشتغالهم بالعلوم الكونية فى أوائل القرن الثانى

انقضت دولة بنى أمية والناس فى ظلمات من الفتن كما قلنا ودالت الدولة لبنى العباس واستقرت فى نصابها من آل بيت النبى قرب نهاية الثلث الأول من القرن الثانى للهجرة "سنة ١٣٢"، ثم نقل المنصور عاصمة الملك إلى بغداد فصارت بعد ذلك عاصمة العلم والمدنية أيضاً، وأخذ المنصور ينشئ المدارس للطب والشريعة وكان قد جعل من زمنه ما ينفقه فى تعلم العلوم الفلكية وأكمل حفيده الرشيد ما شرع فيه وأمر بأن

يلحق بكل مسجد مدرسة لتعليم العلوم بأنواعها. وجاء المأمون فوصلت به دولة العلم إلى أوج قوتها، ونالت به أكبر ثروتها. ويقال إنه حمل إلى بغداد من الكتب المكتوبة بالقلم ما يثقل مئة بعير، وكان من شروط صلحه مع ميشيل الثالث أن يعطيه مكتبة من مكاتب الاستانة. فوجد مما فيها من النفائس كتاب بطليموس فى الرياضة السماوية فأمر المأمون فى الحال بترجمته وسموه بالمجسطى. ولا يسهل على كاتب إحصاء ما ترجم من كتب العلوم على اختلافها فى دولة بنى العباس أبناء عم الرسول صلى الله عليه وسلم.

○○○

إنشاؤهم دور الكتب العامة والخاصة

وقد أخذت دول الإسلام تعتنى بديار الكتب عناية لم يسبقْها مثلها من دول سواها حتى كان فى القاهرة فى أوائل القرن الرابع مكتبة تحتوى على مائة ألف مجلد منها ستة آلاف فى الطب والفلك لا غير. وكان من نظامها أن تعار بعض الكتب للطلبة المقيمين فى القاهرة. وكان فيها كرتَان سماويتان إحداهما من الفضة يقال: إن صانعها بطليموس نفسه وإنه أنفق فيها ثلاثة آلاف دينار. والثانية من البرونز. ومكتبة الخلفاء فى أسبانيا بلغ ما فيها ست مائة ألف مجلد. وكان فهرستها أربعة وأربعين مجلدًا. وقد حققوا أنه كان فى أسبانيا وحدها سبعون مكتبة عمومية. وكان فى هذه المكاتب مواضع خاصة للمطالعة والنسخ والترجمة.

وبعض الخاصة كانوا يولعون بالكتب ويجعلون ديارهم معاهد دراسة لما تحتوى عليه. يقال إن سلطان بخارى دعا طبيبًا أندلسيًّا ليزوره فأجابه

أن ذلك لا يمكنه، لأن كتبه تحتاج إلى أربعمائة جَمل لتحملها وهو لا يستغنى عنها كلها. وكان حنين بن إسحق النسطورى فى بغداد ممن جعل فى داره مكتبة عامة يَفِدُ إليها طلاب العلوم العقلية والرياضية وكان يتبرع بمذاكرتهم فيما يريدون المذاكرة فيه.

إنشاؤهم المدارس للعلوم وكيفية التدريس

غُطى بسيط المملكة الإسلامية على سعتها بالمدارس. نقول (على سعتها) لأنها زادت فى السعة على المملكة الرومانية بكثير. فكنت تجد المدارس فى كل الأقطار: فى المغول، فى التتار من جهة المشرق، فى مراكش. فى فاس، فى أسبانيا من جهة المغرب.

كانت طريقة الأساتذة فى التدريس أن كل مدرس يُعِدُّ درسه ويكتب فى الموضوع الذى يلقى الدرس فيه ما يريد أن يكتب ثم يلقيه على التلامذة وهم يكتبون عنه، ثم تكون هذه الدروس كتبًا وأمالى تنشر بين الناس فى كل علم. وهنا نبادر إلى القول بأن المؤرخين قد أجمعوا على أن جميع المقالات والكتب كانت تنشر ويتداولها الناس بدون أدنى مراقبة ولا حجر ولا نقص شيء مما كتب صاحب الكتاب غير أن مؤرخًا واحدًا رأيته ذكر أنه قد وُضِعَ قانونٌ فى بعض الممالك الإسلامية لنشر كتب العقائد مقتضاه أن لا ينشر منها شيء إلا بإذنٍ. على أنى لا أعلم شيئًا من ذلك وقع فى الممالك الإسلامية أيام كان الإسلام إسلامًا.

نرجع إلى الكلام فى المدارس الإسلامية. يقول جبون فى كلامه على حماية المسلمين للعلم فى الشرق وفى الغرب: (إن ولاة الأقاليم والوزراء كانوا ينافسون الخلفاء. فى إعلاء مقام العلم والعلماء. وبسط اليد فى الإنفاق على إقامة بيوت العلم ومساعدة الفقراء على طلبه. وكان عن ذلك أن ذوق العلم ووجدان اللذة فى تحصيله قد انتشرا فى نفوس الناس من سمرقند وبخارى إلى فاس و قرطبة. أنفق وزير واحد لأحد السلاطين (هو نظام الملك) مائتى ألف دينار على بناء مدرسة فى بغداد. وجعل لها من الريع يصرف فى شؤونها خمسة عشر ألف دينار فى السنة. وكان الذين يُغْذوْن بالمعارف فيها ستة آلاف تلميذ فيهم ابن أعظم العظماء فى المملكة وابن أفقر الصناع فيها. غير أن الفقير ينفق عليه من الريع المخصص للمدرسة وابن الغنى يكتفى بمال أبيه. والمعلمون كانوا يُنقدون رواتب وافرة). اهـ

انقسمت الممالك الإسلامية فى زمن من الأزمان إلى ثلاثة أقسام وتنازع الخلافة ثلاث شيع. كان العباسيون فى آسيا (الشرق) والأمويون فى الأندلس من أوروبا (الغرب) والفاطميون فى مصر من أفريقيا (الوسط) ولم يكن تنافس هذه الدول الثلاث قاصرًا على الملك والسلطان ولكن كان التنافس فى العلم والأدب. وكان مرصد سمرقند قائمًا فى ناحية المشرق يشير إلى ما كان عليه المشرقيون من العناية برياضة الأفلاك. ومرصد جيرالد فى الأندلس يجيبه بأن أهل المغرب ليسوا بأحط منهم فى الإدراك.

جميع المدارس فى البلاد الإسلامية أخذت نظام الامتحان فى المدارس الطبية عن مدرسة الطب فى القاهرة وكان من أشد النظامات وأدقها. ولم يكن لطبيب أن يمارس صناعته إلا على شريطة أن تكون بعد شهادة

بأنه فاز فى الامتحان على شـدته. وأول مدرسـة طبية أنشئت فى قارة أوربا على هذا النظام المحكم هى التى أنشـأها العرب فى سـاليرن من بـلاد إيطاليا، وأول مرصد فلكى أقيم فـى أوروبا هو الذى أقامه العرب فى أشبيلية من بلاد أسبانيا.

وُلع المسـلمون بالعلوم الكونية على اختلافها، والفنون الأدبية بجميع أنواعها، حتى القصص والأسـاطير الخيالية. فى الأحوال الاجتماعية، وابتـدأوا بأخـذ العلم عن اليونانية والسـريانية، وأخـذوا ينقلون كتب الأولـين من تلك الألسـن إلى اللغة العربية بالترجمـة الصحيحة. وكان مترجموهم فى أول الأمر مسـيحيين وصابئين وغيرهم، ثم تعلم كثير من علماء المسـلمين اللسـان اليونانى واللاتينى وكتبوا معاجم فى اللسانين. وذلك كله ليأخذوا العلوم من أصولها، وينقلوها إلى لسـانهم على حسب ما يصل إليه علمهم فيها. وكان المعلمون لأبناء العظماء فى أول الأمر من المسـيحيين واليهود ثم أنشئت المدارس الجامعة وكان المدرسون فيها من كل ملة ودين. كلٌ يعلّم العلم الذى عرف هو بالبراعة فيه.

○○○

علوم العرب واكتشافاتهم

كان علم العرب فى أول الأمر يونانيًا لكنه لم يلبث كذلك إلا دون قرن واحد ثم صار عربيًا. ولم يرض العربى أن يكون تلميذًا لأرسطو و أفلاطون أو إقليدس أو بطليموس زمنًا طويلاً كما بقى الأوربى كذلك عشـرة قرون كاملة من التاريخ المسيحى.

قالـوا: إن باكون هو أول مـن جعل التجربة والمشـاهدة قاعدة للعلوم العصرية وأقامها مقام الرواية عن الأساتذة والتمسك بآراء المصنفين وأطلق العلـم من رق التقليـد. ذلك حق فى أوربا. أما عنـد العرب فقد وضعت هذه القاعدة عندهم لبناء العلم عليها فى أواخر القرن الثانى من الهجرة. أول شـيء تميز به فلاسـفة العرب عمن سواهم من فلاسفة الأمم هو بناء معارفهـم على المشـاهدات والتجربيات وأن لا يكتفـوا بمجرد المقدمات العقلية فى العلوم ما لم تؤيدها التجربة حتى لقد نقل جوستاف لوبون عن أحد فلاسفة الأوربيين: أن القاعدة عند العرب هى (جرّب وشاهد ولاحظ تكن عارفًا) وعند الأوربى إلى ما بعد القرن العاشـر من التاريخ المسـيحى (اقرأ فى الكتب وكرر ما يقول الأسـاتذة تكن عالمًـا). (فلينظر المصريون وغيرهم من الشرقيين كيف انقلب الحال، وماذا أعقب من سوء المآل)

قـال ديلامبْر فى تاريخ علـم الهيأة: (إذا عددت فـى اليونان اثنين أو ثلاثة من الراصدين أمكنك أن تعد من العرب عددًا كبيرًا غير محصور). أمـا فى الكيمياء فلا يمكنك أن تعد مُجرِّبًا واحدًا عند اليونانيين ولكنك تعـد من المجرّبين مئين عند العرب، ولهذا عدت الكيمياء الحقيقية من اكتشاف العرب دون سواهم. وقد كانوا يعدون الهندسة والفنون الرياضية من الآلات المنطقية. يسـتعملونها فى الاستدلال على القضايا النظرية. وهى من أصدق الأدلة فى الإيصال إلى المجهولات كما هو معروف.

العرب هم أول من استعمل الساعات الدَّقّاقة للدلالة على أقسام الزمن وهم أوّل من أتقن اسـتعمال الساعات الزوالية لهذا الغرض. وقد اكتشفوا قوانين لثقل الجسـام جامدها ومائعها حتى وضعوا لها جداول فى غاية

الدقــة والصحة كما وضعوا جداول للأرصاد الفلكية وكانت تلك الجداول معروفة يطلع عليها الناظرون فى سمرقند وبغداد وقرطبة حتى لقد وصلوا بتلك القوانين إلى ما يقرب من اكتشاف الجاذبية.

لا يمكننــى فى مقالى هذا أن أعدّ ما اكتشــف العرب ولا ما زادوه فى العلوم على اختلاف أنواعها فذلك يحتاج إلى سِفْر كبير. وقد أحصى ذلك أهل المعرفة والإنصاف من فلاســفة الأوربيين ومؤرخيهم. وربما يتيســر لأبناء الأمة العربية أن ينشــروا ذلك لإخوانهم حتى يعرفوا ما كان عليه أســلافهم[1] ولكنى أذكر كلمة قالها بعــض حكماء الغربيين[2]: (تأخذنا الدهشة أحيانًا عندما ننظر فى كتب العرب فنجد آراء كنا نعتقد أنها لم تولد إلا فى زماننا كالرأى الجديد فى ترقى الكائنات العضوية وتدرجها فــى كمال أنواعهــا فإن هذا الرأى كان مما يعلّمه العرب فى مدارســهم وكانوا يذهبون به إلى أبعد مما ذهبنا. فكان عندهم عامًّا يشمل الكائنات غــير العضوية والمعــادن. والأصل الذى بنيت عليــه الكيمياء عندهم هو ترقى المعادن فى أشكالها.

قال الخازنى: إذا سمع الشعب الجاهل ما يقال بين العلماء أن الذهب قد تقلب فى الأشــكال المختلفة حتى صــار ذهبًا ظن من هذا أنه مرَّ فى صــور معــادن أخرى فكان رصاصًا ثم قصديرًا ثــم صُفرًا ثم فضة ثم صار بعــد ذلك ذهبًا. ولا يعلم أن الفلاســفة إذا قالوا ذلك فإنما يقصدون منه ما أرادوه من قولهم فى الإنســان أنه وصل إلى حالته الحاضرة بالتدريج ومــن طريق الترقى وهم لم يعنوا بقولهم هــذا أنه تقلب فى صور الأنواع

(١) المنار: قد نشرنا جملة صالحة من ذلك فى مقالات (مدنية العرب) فى المجلد الثالث.
(٢) هو الفيلسوف درابر الامريكانى. .

المختلفة كأنْ كان ثورًا ثم حمارًا ثم فرسًا ثم قردًا ثم صار بعد ذلك إنسانًا). اهـ. ويقول الفيلسوف كوستاف لوبون: (إن العرب أول من علّم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين).

وهنا أنكر على بعض فلاسفتهم ما نقلوه عن ابن رشد من أنه ذهب في حرية الرأى إلى نقض أصل الدين وقال: إن الروح لا بقاء لها بعد فناء الجسد وإنما الذى يبقى هى أرواح الأنواع. فإن هذا خطأ عرض لهم من سوء فهم كلامه فى بيان بقاء الأنواع دون الأشخاص فإنه قال كما قال أرسطو وغيره: إن الأشخاص توجد وتفنى، وأما الأنواع فهى باقية لا تزول. وهذا باب آخر يغير بالمرة ما استنتجوا منه (وقد سبق الكلام فى بيان رأيه من وجه آخر)[1] كما أخطأوا فى قولهم عنه أنه كان يعتقد بأن الله روح العالم يظهر فى صورة والكل يرجع إليه بمعنى: أنه يفنى فى ذاته ولا يبقى فى العالم باقٍ آخر وهو يقرب من قولهم السابق. فإن ابن رشد كان مسلمًا وكان يعرف أن الإسلام لا ينافى العلم وإنما ينافى هذا الضرب من الوهم الذى لم يسقط فيه أحد إلا من عثرة فى طريق العلم أو الاسترسال مع الخيال. وكثير ممن سكروا بهذا الرأى أفاقوا منه. ولكن كتب ابن رشد التى بين أيدينا تبعد بنا عن نسبة هذا الرأى إليه كما سبق بيانه[2] ولكنى لا أنكر نسبته لو نسب إلى ابن سبعين وهو ممن أخذ عن تلامذة ابن رشد فإن فى كلامه ما يدل على ذلك.

ويقول فيلسوف آخر: (إن العلوم التى تلقاها العرب عن اليونانيين وغيرهم وكانت ميتة بين دفات الدفاتر مقبورة بين جدران المكاتب أو مخزونة فى بعض الرءوس، كأنها أحجار ثمينة فى بعض الخزائن

(١) (٢) قد سبق ذلك فى المقالة الأولى التى رد بها الكاتب على الجامعة ..

لا حـظَّ للإنسـانية منها سـوى النظـر إليها – صار عنـد العرب حياة الآداب، وغـذاء الأرواح، وروح الثروة. وقـوام الصنعة. ومهمازًا للقوى البشـرية يسـوقها إلى كمالها الذى أعِدَّتْ له. وليـس فى الأوربيين من درس التاريـخ وحكـم العقل ثم ينكر أن الفضل – فـى إخراج أوربا من ظلمة الجهل إلى ضياء العلم وفى تعليمها. كيف تنظر وكيف تتفكر وفى معرفتها أن التجربة والمشـاهدة هما الأصلان اللـذان يبنى عليهما العلم – إنمـا هو للمسـلمين وآدابهم ومعارفهم التى حملوهـا إليهم وأدخلوها من أسـبانيا وجنوب إيطاليا وفرنسـا عليهم. وكان من حظ العلم العربى والأدب المحمدى عندما دخلا إلى إيطاليا أن البابا كان غائبًا لأن كرسيه كان انتقل إلى فرنسـا فى أفنيون نحو سـبعين سنة فدبّ العلم إلى شمال إيطاليا واسـتقر به القرار هناك. إن شـوارع باريس لم تفرش بالحجارة إلا فى القرن الثانى عشر وقد رصّت بالبلاط على نحو ما رصّت به مدن أسبانيا). اهـ

ويقول آخر: (لا أدرى كيف أعطانا الإسـلام فى مدة قرنين عددًا من الفلكيين يطول سـرد أفراده وإن الكنيسـة تسلّطت على العالم المسيحى اثنى عشر قرنًا فى أوربا ولم تمنحنا فلكيًّا واحدًا).

هـذا النماء والذكاء العلمى لم يكن خاصًّـا بطائفة دون طائفة بل كان الناس فى التمكن من تناوله سـواء، وإنما كان التفاضل بالجِدِّ والعمل، والفضـل فى ذلك كله لحلـم الخلفاء وعمّالهم. وسماحة الدين ويسـره وسـهولته على أهله وأهل ذمته. قال بعض فلاسفة الغربيين قولاً يعرفه الحق وتثبته المشاهدة: (إن شعوب الأرض لم تَرَ قط فاتحًا بلغ من الحلم

هذا المبلغ (يريد فاتحى الإسلام على اختلافهم) ولا دينًا بلغ فى لينه ولطفه هذا الحد).

○○○

أخذ الخلفاء والأمراء بيد العلم والعلماء

إن الخلفاء الذين يقال عنهم: إنهم رؤساء دين وحكام سياسة معًا كانوا هم بأنفسهم المتعلمين للعلوم الداعين إلى تعلمها. كانوا العالمين العاملين. كان خليفة كالمأمون يضطهد أحيانًا أعداء الفلسفة، وقد عرف التاريخ كثيرين من أرباب الشهرة الذين قضوا فى سجنه الشهور أو السنين؛ لأنهم كانوا يعادون الفلسفة ظنًّا منهم أن منها ما يعدو على الدين فيفسده. هل رأيت فى غير الإسلام رئيسًا يضطهد أعداء العلم وجفاة الفلسفة ؟ لعلك لا تجده أبدًا.

كان أهل العلم والأدب عامة يجدون من الاحترام عند الخلفاء والأمراء والخاصة ما يليق بهم كيفما كان حالهم. وسأضرب المثل بالشيخ أبى العلاء المعرى لشهرته بين الناس بما يشبه الزندقة: يذكر على بن يوسف القفطى أن صالح بن مرداس صاحب حلب خرج إلى المعرة وقد عصى أهلها عليه فنازلها وشرع فى حصارها ورماها بالمنجنيق فلما أحسّ أهلها بالغلب سعوا إلى أبى العلاء بن سليمان وسألوه أن يخرج ويشفع فيهم فخرج ومعه قائد يقوده فأكرمه صالح واحترمه ثم قال: ألك حاجة؟ قال: الأمير أطال الله بقاءه كالسيف القاطع لان مسّه وخشن حده، وكالنهار البالغ قاظ وسطه وطاب برده ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ

﴿ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ سورة الأعراف آية ١٩٩، فقال له صالح: قد وهبتها لك. ثم قال له: أنشدنا شيئًا من شعرك لنرويه فأنشده على البديهة أبياتًا فيه فترحل صالح. فانظر كيف وهب الأمير بلدًا عصى أهله لفيلسوف معروف بما هو عنه معروف، ولو ذكرت ما نال العلماء والفلاسفة عند الأمراء والخلفاء لطال بى المقال أكثر مما طال وفيما سبق كفاية لمكتف.

○○○

إزالة شبهتين وبيان حقيقة الاضطهاد

قد يتوهم قوم أن الاضطهاد قد يظهر فى مقت العامة وخلقهم ما يخلقون من المفتريات على أهل العلم والفكر الحر وهمس بعضهم فى آذان بعض وتغامزهم على أهل الفضل، ولمزهم إياهم بالألقاب بل واحتقارهم فى بعض الأحيان وهذا النوع منه عند المسلمين بلا نكير، وهو خطأ ظاهر؛ لأن هذا النوع مما يكره أهل العلم لا تخلو منه أرض ولا تطهر منه بلاد مهما بلغ أهلها من الحرية ومهما بلغ ذوق العلم من نفوس أهلها فإن القائمين على عقيدة الكاثوليك إلى اليوم فى أرض فرنسا نفسها يمقتون الفلاسفة الذين يظهرون بمعاداة الكنيسة ويكتبون ما يوهن قواعدها وقد يخلق عليهم أحزاب الكاثوليك ما لم يقولوه، ويرون أن النظر فى كتبهم لا يجوز فى شريعة الدين. ونحن لا نرتاب فى أن نحو هذا كان عند المسلمين أيام كانت سوق الفلسفة رائجة عندهم ولكنه ليس من الاضطهاد فى شيء وإنما هى نفرة الإنسان مما لا يعرف مع ترك صاحبه وشأنه يمضى فى سبيله إلى حيث يشاء.

يقـول آخرون: إن التاريخ يروى لنا أن بعض أرباب الأفكار قد أخذه السـيف لغلوّه فى فكره فلم يترك له من الحرية ما يتمتع به إلى منتهى ما يبلغ به وليس يصح أن ينكر ما صنع الخليفة المنصور وغيره بالزنادقة.

وأقول: إن كثيرًا من الغلوّ إذا انتشـر بين العامة أفسـد نظامها وأضرّ بأمنها كما كان من آراء الحلاج وأمثاله[1] فتضطر السياسـة للدخول فى الأمـر لحفظ أمن العامـة فتأخذ صاحب الفكر لا لأنه تفكر ولكن لأنه لم يـرد أن يقصر حق الحرية على شـخصه بـل أراد أن يقيد غيره بما رآه من الحرية لنفسـه مع أن غيره فى غِنى عمّا يراه هو حقًّا له، وتخشـى الفتنـة إذا اسـتمر مدعى الحرية فى غلوائه لهـذا يرى حُفاظ النظام أن أمثـال هؤلاء يجب أن يُنقَّى منهم المجتمع صونًا له عما يزعزع أركانه. ونحن نرى الفلسـفة اليوم تضطهد الدين هذا الضرب من الاضطهاد. ألم تقض الحكومة الفرنسـية على الراهبـين والراهبات أن تكون جمعياتهم ومدارسـهم تحت سـيطرة الحكومة وأن لا ينشأ شيء منها إلا بإذن من الحكومـة. ومـن لم يخضع لذلـك تنحل جمعيته وتقفل مدارسـه بقوة السلاح. وقد ينفى من البلاد كما نفى كثيرون فى سنين سابقة؟ ولكن هل يسـمَّى هذا اضطهادًا؟ كلا ولكـن الاضطهاد حق الاضطهاد هو اضطهاد محكمة التفتيش واضطهاد رؤساء الإصلاح بعدها فى أول نشأتهم.

مـاذا يقول القائلون؟ إن التعليم عند المسـلمين كان غريبًا أمرُه، يكاد يكـون خفيًّا والمتكلم والمحدث والنحوى والمتأدب والفيلسـوف والفلكى والمهنـدس! ينتقـل الطالـب من بين يـدى الفقيه ليجلـس بين يدى

(١) المنار: ذكر إمام الحرمين فى كتابه (الشـامل) فـى أصول الدين أنه كان بين الحلاج والجنابى رئيس القرامطة اتفاق سرى على قلب الدولة وأن ذلك هو السبب فى قتل الحلاج.

الفيلسوف ومن مجلس الحديث إلى مجلس الأدب. وإذا وقعت مذاكرة بينهم فى مسألة من المسائل أخذت الحرية مأخذها فى الإقناع والإلزام وسقطت قيمة الغلوّ فى التعبير وأخذ التسامح بينهم مأخذه. كان عمرو بين عبيد رئيس المعتزلة وأشدهم صلابة فى أصول مذهبه ومع ذلك هو من مشايخ الإمام البخارى صاحب الصحيح وكانت له منزلة عند المنصور تعلو كل ذى منزلة عنده حتى قال له يومًا وهو خارج من بين يديه: (رَميتْ لكل الناس حَبًّا فلقطوا إلا أنت يا عمرو بن عبيد) فانظر كيف كان لإمام من أئمة السنة أن يصل سنده فى الحديث برئيس من رؤساء المعتزلة ولا يرى فى ذلك بأسًا.

إذا عدَّ عادٌّ بعض رجال العلم الذين أخذتهم القسوة فى الإسلام وقتلتهم حماقة الملوك بإغراء الفقهاء وأهل الغلوّ فى الدين فما عليه إلا أن ينظر فى أحوالهم فيقف لأول وهلة على أن الذى أثار أولئك عليهم ليس مجرد العصبية للدين، وأن ليست الغيرة عليه هى الباعث لهم على الوشاية بهم وطلب تنكيلهم. وإنما تجد الحسد هو العامل الأول ذلك كله والدين آلة له.

ولهذا لا ترى مثل ذلك الأذى يقع إلا على قاضى قضاة (كابن رشد ورجوع الحاكم إلى العفو عنه وإنزاله منزلته دليل على ذلك) أو وزير أو جليس خليفة أو سلطان أو ذى نفوذ عظيم بين العامة. وهذا كما يقع من الفقهاء مثلاً لإيذاء الفلاسفة يقع من الفقهاء بعضهم مع بعض لإهلاك بعضهم بعضًا كما يشهد به العيان ويحكى لنا التاريخ، فليس هذا كذلك معدودًا من معنى اضطهاد الدين للفلسفة. لأن التحاسد أكثر ما يقع بين

من لا دين لهم على الحقيقة وإن لبسوا لباسه. وإنما ذلك الاضطهاد هو الذى يحمل عليه محض الاختلاف فى العقيدة أو ظن المخالفة للدين فى شـــيء من العلم أو العمل لضيق الدين عن أن يسع المخالف بجانبه وهذا لم يقع فى الإسلام، اللهم إلا أن يكون حادث لم يصل إلينا.

هذه طبيعة الدين الإســـلامى عرضت عليك فى أهمّ عناصرها ومقوّمات مزاجها. وهذا كان أثرها فى العالم الشـــرقى والغربى. وهذه ســـعة فضل الدين وقوته على احتمال مخالفيه وتيســـيره لأولئك المخالفين أن يحتموا بـــه متى رضوا بأن يســـتظلّوا بظله. هل فى هـــذا خفاء على ناظر، وهل يرضى لبيب لنفسه أن ينكر الضوء الباهر، أفلا يبسم الإسلام عجبًا وهو فى أشـــدّ الكرب لعقوق أبنائه، من أديب لم يكن يعده من أعدائه إن لم يحســـبه فى أحبائه، عندما يراه يسدّد ســـهمه إليه، ويجور كما يجور الجائرون فى حكمه عليه؟

○○○